قائد .. لن يتراجع عن الحرية لن يتراجع عن سيادة القانون

الدكتور مصطفى أبو زيد فهمى يسجل ((للأخبار)) خواطره بين الأمس واليوم فى الذكرى الثانية لـ ١٥ مايو ..

عامان .. منذ اصر الرئيس انور السادات على تصفية مراكز القوى ، واعلان سيادة القانون .

وليس هدفى فى هذا الحديث ان اروى القصة الكاملة لمراكز القوى : كيف نشأت ، وكيف تحكمت ، وكيف سحقها الرئيس .. فقد اكتبها فى يوم من الايام قريب . ولكن هذا الحديث مجرد خواطر تتدافع الى الذهن قادمة من الماضى القريب والماضى البعيد معا ..

بقلم :
الدكتور مصطفى أبو زيد فهمى

لقد حدث منذ عشرين ان عرض على ملف خاص لأحد المواطنين ، واخذت اقلب الاوراق التى امتلأ بها الملف ، وفجأة تسمرت عيناى على قرار لمراكز القوى السابقة :

((بأن يقبض على هذا المواطن ، ويعتقل ، ويوضع تحت الحراسة ، (توزع ارضه على الفلاحين)) ....

نعم .. هذا هو القرار .. بهذه العبارات ..

واخذت اقلب الاوراق من اولها الى آخرها ، اتعمق فى قراءة سطورها لعلى اصل الى ما ارتكبه هذا المواطن من جرم فادح فى حق وطنه .

.. واخيرا وجدت انه تجسس ، مجرد همس ، فى حديث له مع بعض الاشخاص فى احد المقاهى ، وكان الحديث العابر يتضمن نقدا لبعض مراكز القوى القديمة وتصرفاتها ، وما احدثته هذه التصرفات من ضرر بالبلاد ..

ثم يصل عمله الى حد التآمر .. لم يرتكب جريمة سياسية مهما توسعنا فى فهم الجريمة السياسية .. لم يتول الى صفوف الجماعات محاولا بث الفرقة والفتنة بين صفوفها .. لم يحاول ان يحبط الوحدة الوطنية او ينال منها .. مجرد حديث عابر نقد فيه مراكز القوى وتصرفاتها اخذ بها ((الذنب اخيرا)) .. لم يحقق معه قبل العقاب احد .. لم يسمح له دفاع قبل ان تصادر حريته ويحرم من التصرف فى ماله . وكانت هذه الناشئة على ((مذكرة ادارية)) خلت من كل تحقيق ، ودفعت به الى السجن ثلاث سنين .

ولم اكن قد نسيت حالة هذا المواطن التعس عندما ساقت الاقدار الى مواطنا آخر ، وطرق احاديث معه الى ماضيه السياسى ، فاذا به يجيب بكل بساطة :

– ((انا اخذت ٣٠ شهر ، سنة كلا)) فى معتقل ((الواحات)) .

وكان طبيعيا ان اسأله عن جريمته ، حتى حوكم من اجلها ، واى محكمة اصدرت الحكم . فكان جوابه هو آخر ما يمكن ان يتوقعه شخص عاقل :

– ((انا فى الحقيقة دخلت معتقل الواحات ولم يسألنى احد .. وقضيت هناك ثلاثين شهرا ولم يسألنى احد ، وبعد ذلك خرجت !!

لم يكن هناك تحقيق ، ولم يكن هناك دفاع ، ولم تكن هناك محاكمة ، ولم تكن هناك تهمة على الاطلاق !!

هذا هو الذى ينتج عن غياب سيادة القانون .. والحالات المشابهة عديدة ومتنوعة ..

وهذه الحالات وسواها كانت تحاصر الكرى وتلح على ، فى لحظات رأيت فيها الحرية – فى مصر – تهاجم – من قلة مضللة – باسم الحرية ، ورأيت فيها هذه القلة المضللة تتناول – وهى فى مصر سيدة القانون ... من سيادة القانون .. فهل ثبت هذه الامثلة من الادعاء ، وهى قليلة بأن تكشف لنا مدى الفارق بين هذين ؟

انها قطعا لم تعب .. ولكن الذى يحدث – عندنا وعند سواه وفى جميع الانظمة السياسية – انه ترى فئة قليلة – حالة او مضللة – تحاول ان تسىء الى نظام الحكم كله – وتحاول ان اسطاعت – مستغلة فى سعيها بطائفة واعية من الحرية وسيادة القانون . فذا تحركت لمساندتها او عقابها لم تتردد فى ان تقول لك :

((الم تكونوا انتم تدعون الى الحرية فلماذا تضعون دائرتها ؟ الم يكن سيادة القانون هو شعاركم فلماذا تعطون اذا احتجنا به ؟))

فتأتى سيادة القانون بدلا من ان تخلق جوا من الامن يعيش المواطن فى الانتاج والحياة الكريمة قد اقرب مصر اعداء التقدم بأن يسيئوا الى الحرية فيه مستغلين وسائل الحرية المتاحة .

وعلى الرغم من ذلك كله ، فقد كان قرار الرئيس حاسما – كالصوت الساطع – اذ اعلن فى اصرار : الا تراجع عن الحرية .. والا تراجع عن سيادة القانون .. بل ومزيدا من الحرية ، ومزيدا من سيادة القانون .. واذا كانت هناك مؤاخذة او عقاب فليكن هو ايضا فى ظل سيادة القانون .

ان ايمان الرئيس بالحرية وسيادة القانون ايمان عميق ، ينبع من ايمانه بوطنه ، وايمانه بشعبه ، وايمانه بكرامة الانسان فيه . ومن هنا جاء اصراره على ان تكون حماية النظام السياسى – هى ايضا – فى ظل سيادة القانون . فيكون هناك من الضوابط والقواعد ما يكفل لامن المجتمع السياسى والاقتصادى حماية قوية ، وللمواطن ضمانا اكيدا فلا يؤخذ بغير جريرة او تصادر حريته بغير دفاع ..

وثمة حقيقة بارزة يدركها الانسان اذا ما عمل مع الرئيس عن قرب : فان قيم الحياة الاساسية لا تنفع – فى نظره – بحسب المستفيد منها . فحبه للحرية لا يتغير بحسب ما اذا كان هو رئيسا حاكما ، او مواطنا محكوما .. والايمان بكرامة الانسان وحقه فى الحياة ملأ نفسه – كمواطن – فذهب فى رعايته – كحاكم – الى اقصى المدى .

ونفس الشىء تجده بالنسبة لمراكز القوى ..

فقد رأى مراكز القوى المصطنعة – ليس ((كمراكز)) ناشئة سرطانية ((تعمل ضاغطة على النظام السياسى)) كما – مستهدفة فى النهاية ان تسير هذا النظام على هواها ، فيأتى ((القرار السياسى)) فى النهاية متفقا مع رأيها وارادتها .

ومن هنا فقد اسقط الذين منها ، وكان ذلك فى ظروف الزمان والمكان عملا ينطوى على شجاعة اسطورية .. واصر على الا يكون لها سبيل فى تهدمه ، وكان ذلك عملا ينطوى على بعد نظر كبير ..

نعم .. فليس هناك فى مصر – الآن – على الاطلاق – رجل من رجالات الحكم الذين يحيطون بالرئيس ، او يعملون معه ، يستطيع ان يقول انه ((مركز قوة)) ..

انه هذه الحقيقة من الحقائق البارزة فى مصر الآن .

فانت اذا لقيت الرئيس فى داره ، وذلك بمناسبة شديدة الخصوصية ، كما فى حضرة رئيس الدولة .

فالرئيس كرم فى داره .. كريم فى كل شىء .. فى حديثه ، فى لقائه ، بل وكريم فى انصاته ايضا . فهو يسمع اليك جيدا ثم يدهشك – بعد ان تنتهى – بسؤال او سؤالين يكشفان لك – بوضوح شديد – انه اندمج فى لحظات اعماق الموضوع الذى تعرضه ، وجوهر المسألة التى جئت تطلب قرارا فيها .

وعلى الرغم من هذا الكرم الشديد الذى يحيط به زائريه من رجالات الدولة ، فان احدا منهم على الاطلاق لا يستطيع ان يدعى – مهما امتلأت نفسه بالوهم – انه يحتكر بمفرده الاذن الرئيس ، او انه يؤثر بمفرده فى قراره او ان له على غيره من الناس اولوية مطلقة ..

فهذا الرجل القوى – انور السادات – ليس مستعدا على الاطلاق بحكم تكوينه وخلقه وصلابته ان يجعل من اى فرد مركزا من مراكز القوى فى الدولة .. كل رجل يأخذ من التشجيع بقدر ما يعمل وما ينتج وما يقدم للبلاد من خدمات . ولكن القرار السياسى هو – قبل ذلك وبعد ذلك – للرئيس وحده .

لقد بلغ من حرص الرئيس على ذلك انه لم يجعل اى انسان ممن يحيطون به اعلى من المساءلة او اعلى من النقد . واكثر الناس قربا له هم اعضاء اسرته ، واكثر الناس خضوعا للرقابة والمساءلة هم اعضاء اسرته .

ان هذه الحقيقة المذهلة هى اوضح ما تكون فى حياة الرئيس انور السادات .

ولقد ذهبت للقائه ذات يوم فاذا به يحيل الى عدة شكاوى ورقات اليه وكلفنى بالتحقيق فيها . وكان من بينها شكوى مجهولة ضد قريب من اقربائه . ووجدت عليها بخطه عبارات حاسمة يطلب فيها التحقيق السريع ومعاقبة كل من يثبت عليه تقصير او استغلال ..

ونظرت فى الشكوى ، فاذا بها من مجهول ، ولا تحتوى على وقائع محددة تحديدا كافيا ..

ولم استطع ان اقول له ان بعض اجهزة الرقابة فى مصر ترفض حتى ان تجمع المعلومات فى الشكاوى المجهولة . فقد ارتفع صوته قائلا :

((حقق الشكاوى دى .. وعاوزك تبدأ بى انا)) [اعنى بالشكوى الخاصة بقريبه هذا] وكرر هذه العبارة مرتين فى حزم شديد ..

ولا يستطيع الانسان – فى مثل هذا الموقف – وامام هذه العبارات الحاسمة الا ان يملى نفسه بالاعجاب العميق الذى يعقد لسانه عن الكلام .. فهذا رجل على قمة السلطة – وامام شكوى مجهولة لم يوقع عليها صاحبها – يأمر بان يكون المحيطون به هم اشد الناس خضوعا لرقابته الحاسمة ..

ولوليت التحقيق – بنفسى – فى هذه الشكوى ، واشهر التحقيق الى ان الشكوى كيدية تماما . ومع ذلك فقد خشيت ان يتصور الرئيس انى قصرت فجئت فى المذكرة التى تضمنت نتيجة التحقيق انى على استعداد لان ابعث بالتحقيق كله للرئيس ليقرأه بنفسه ان اراد .

وامثلة كثيرة من هذا النوع ، ولولا انى اعلم انه يعتز بالاملاك لروايت لعديد من الوقائع التى يبدو فيها اقرب الناس اليه هم اشدهم خضوعا لرقابة صارمة وحزم شديد .

وقد يقول قائل : ولكن الجهاز الادارى للدولة ، او المجتمع العام ، ينطوى على حالات – قلت او كثرت – على تسيب او انحراف .. واقول ان هذه هى مهمتى ومهمتك ومهمة الرئيس ايضا .. فقد اصدر الرئيس تعليماته الى الوزراء بالتحقيق فى كل ما يصل الى علمه من تسيب او انحراف ، وبالتأديب الحاسم لكل من يثبت عليه ذلك .

وقد اصدر الرئيس تعليماته الى الوزراء بالتحقيق فى كل ما يصل الى علمه من تسيب او انحراف ، وبالتأديب الحاسم لكل من يثبت عليه ذلك .

وقد اصدر الرئيس تعليماته الى الوزراء بالتحقيق فى كل ما يصل الى علمه من تسيب او انحراف ، وبالتأديب الحاسم لكل من يثبت عليه ذلك .

فهذا التاريخ ، وهو يقدم لنا مشاهير الرجال الذين ملأوا صفحاته بحياتهم ، نراه يقدم لنا صنفين من هؤلاء ، كلاهما على طرفى نقيض :

● فهناك رجل الدولة الذى يهتم – فى المقام الاول – « بالبريق » .. يؤرقه دائما مجده الشخصى ، ويريد لحياته ان تتحول الى « اسطورة » .. « فالاسطورة » هى شاغله ، يريد لها ان تنمو وتنتشر ، وتقوى وتشتد حتى وان قدم لها من ابناء امته الالوف ، ومن ثرواتها الكثير ... لايهمه ماتكسبه امته من منافع حقيقية لايهمه ان يرفعها بالتضحيات مالا ودما ، لايهمه ماسيعود عليها من نفع عملى من هذه الخطوة او تلك ، بقدر مايهمه ان تنمو « اسطورته » الشخصية وتقوى وتنتشر ..

● وهناك رجل الدولة الذى يهتم فى المقام الاول بوطنه ، لايرى مجدا لنفسه غير مجد وطنه ورخاء وطنه .. لايهمه « البريق » او « التصفيق » بقدر مايهمه الرخاء الحقيقى لامته وشعبه .

وبين هذين النقيضين يوزع التاريخ رجاله بدرجات متفاوتة ، فمنهم من يغلب عليه طابع المجموعة الاولى وان لم يتم اليها كليا ، ومنهم من يغلب عليه طابع المجموعة الثانية ، وان لم تنطبق عليه بكل خصائصها .

ومن هنا فقد قيل عن نابليون : « ان بعض حروبه فقط هى حروب فرنسا ، وكثير من حروبه هى حروب نابليون » . وهم يقصدون بذلك ان المصلحة الحقيقية للشعب الفرنسى ماكانت تتطلب كل هذه الحروب التى قام بها نابليون ، وحملت الشعب اعباء المال والدم مايفوق طاقته .

اما انور السادات فليس البريق هو الذى يهمه ، وليست الاسطورة هى التى تؤرقه ، وانما يشغله بال دائما – وفى كل قرار سياسى – ابن مصر وشعب مصر واين النفع الحقيقى لهذا البلد ..

ولعل هذه الحقيقة هى التى تفسر قراراته كلها ، سواء منها ماتعلق بالسياسة الداخلية او السياسة الخارجية .. لماذا لم يفعل كذا ؟ ولماذا فعل كذا ؟ الجواب بسيط : ليست « الاسطورة » او « البريق » هما اللذين يشغلانه والا لاصبح الامر سهلا الى حد بعيد : فالدنيا بسهولة والطنين سهل ، والاسطورة تنتشر والشعب يدفع التكاليف مالا ودما .

واذا كان الصنف الاول من الرجال [illegible] ذلك لان مسلكه هنا يتطلب شجاعة مزدوجة :

– شجاعة فى مواجهة نوازع النفس

– وشجاعة فى مواجهة اعتداء الآخرين .

فاما نفس الانسان فانها تهوى الطنين والبريق ، و « الاسطورة » حلوة مليئة بالضباب ..

واما الآخرون ، فما اكثر الذين يدعونك الى اتخاذ قرار فى وقت فى ملأ يدعونك – خوفا او طمعا – الى هذا البريق ، ويعمون – تماما وربما – حالة « الاسطورة » من حولك

والرجل الشجاع هو الذى يقابل بالرفض شهوة النفس واغراء الآخرين ويجعل لوطنه ومصالحه الحقيقية الاعتبار الاول فى كل قرار : فى مصلحته وتوبيته واسداده ..

⊙✤⊙

قصة هذا الرئيس القائد – الذى سحق مراكز القوى واكد الحرية فى مصر وسيادة القانون – هى قصة ايمان ... ايمان عميق بوطنه وشعبه وكرامة الانسان فيه .

والحقيقة ان هذا الايمان ليتصل دائما بايمانه بربه وايمانه بنفسه .

فاما ايمانه بربه ، فهو مصدر الضياء الدائم له ، فى كفاح وطنى رهيب ، على امتداد عشرات سنين . وهذا الايمان بالله عز وجل هو الذى خلع عليه هذا الايمان الشديد بنفسه .. فقد قدر لى ان اراه والعواصف تحرك قربة منه ، فهالنى دائما هدوؤه الشديد .. يحتفظ برأسه هادئا فى اعتى الازمات ، ثم يأتيك قراره دائما صادرا عن فكر عميق ..

وكنت كلما قابلته تلح على عبارة العقاد الشهيرة : « كنت اراه فى الازمات هادى الحوت ، يحرره والنسر فى جوه ، لا كرب ولا وجوم » . فقد عاش منذ صباه الباكر حياة حافلة اكسبته الصبر والثقة . واصبح القرار حتى فى اشق الظروف عملا عاديا عنده .

رجل ضحى بمنصبه فى الجيش ، يوم كان العمل فى الجيش امنية صعبة التحقيق ، وقاده حبه لوطنه الى السجن والاعتقال والمحاكمة .. ويوم عاد الى الجيش من جديد – بعد ايام عصيبة – لم يش مصر للحظة واحدة ولم يؤثر السلامة على الاطلاق ، وكانت خطاه مرة اخرى – ودون تردد – الى صفوف الثورة

فهل هناك مايدل اكثر من ذلك على ثبات العقيدة ، الدينية والوطنية معا ؟؟

وصدق الله العظيم اذ يقول فى محكم آياته :

[illegible]